

الآراء الأدبية والبلاغية في كتاب عيار الشعر لابن طباطبا

د. وداعة عبدالله علي سرار - استاذ مساعد بجامعة النيل الأبيض -كلية الآداب والتربية

د.معتصم يحي آدم بشارة - استاذ مساعد بجامعة النيل الأبيض -كلية الآداب والتربية

المستخلص :-

أن للأدب والبلاغة الحيز الكبير في أقسام اللغة العربية وهما من الأقسام التي أولاها النقاد ودارسي الأدب العربي اهتماما كبير وأوردوا فيها آراء كثيرة ومختلفة كان من بين هؤلاء النقاد ابن طباطبا صاحب كتاب عيار الشعر الذي افرد مساحة للأدب والبلاغة بأراء وأفكار واضحة أسهمت في الحياة الأدبية في الأدب العربي مما جعلنا نقف عند هذه الآراء في هذا البحث المتواضع لما في آراء من نظرة فاحصة واضحة نستطيع من خلالها ان نقف على أثره في الأدب العربي والى أي مدى كان تأثيره في حياتنا الأدبية والفائدة التي نجتها من أرائة الأدبية والنقدية.

مبررات الدراسة :

لفت إنتباهي كتاب عيار الشعر وهو كتاب نقدي وذو فائدة عظيمة علي الحياة الأدبية كما أننا لاحظنا فيه آراء أدبية وبلاغية قيمة مما دفعنا إلى القوص في هذا الموضوع .

اهمية الدراسة :-

تتمثل أهمية هذا البحث في أن ابن طباطبا من خلال عيار الشعر اورد كثير من الآراء الادبية والبلاغية ولم تحظى بالذيع والانتشار وكان لابد من الوقوف عندها .

منهج البحث

اتبعت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي الذي يقوم علي عرض المسألة وإبراز الشواهد على تنوع الاساليب في ايراد الآراء الادبية والبلاغية التي اورها الكاتب في هذا الكتاب .

الاراء الادبية و البلاغية في كتاب عيار الشعر لابن طباطبا:

التعريف بالكتاب (عيار الشعر)

هو كتاب نقدي ذو فائدة عظيمة على الحياة الأدبية والنقدية بصفة عامة لما تشمل عليه الكتاب من تقسيمات وتعريفات وصاحب هذا الكتاب يتضح من كتابه أنه صاحب نظرة صادقة في مجالي البلاغة والأدب ولكنه لم ينل الشهرة الكافية عند دارسي اللغة العربية .

من خلال كتاب "عيار الشعر" يتضح أن له مؤلفات أخرى أشار إليها في هذا الكتاب مما دفعنا إلى القوص في هذا الكتاب .

لعل هنالك أسباباً جعلت هذا الكاتب مغموراً، وعلى الرغم من أن العصر الذي عاش فيه عصر إزدهار اللغة والأدب ونبغ فيه الكثير من النقاد والشعراء .

الاراء الادبية والبلاغية في عيار الشعر :

1/ تعريف الشعر :

عرف ابن طبا طباً في كتابه عيار الشعر عرف الشعر على أنه : "الشعر - أسعدك الله - كلام منظوم بائن عن المنظور الذي يسعمله الناس في مخاطباتهم بما خص به المنظم الذي إن عدل عن جهته محتته الأسماع وفسد الذوق " (9)

من الملاحظ في هذا التعريف أن ابن طباطبا قد جعل الفرق بين الشعر والنثر في الوزن فقط ولم يعط أي إهتمام للقافية ، وإذا أتينا إلى تعريف الشعر عند القدماء للشعر نجدهم يعطوا القافية مكانة في تعريفهم للشعر من ذلك قول قدامة : "قول موزون مقفى يدل على معنى" (10)

ولكن تدخل القافية ضمن الوزن في قول ابن رشيق الوزن في قول ابن رشيق: (الوزن أعظم أركان حد لشعر وأولها به خصوصية وهو يشتمل علي القافية وجالب لها الضرورة)(7)

مراحل العمل الأدبي عنده :

يرى ابن طباطبا من خلال كتابه عيار الشعر أن مراحل العمل الأدبي تتمثل في حد قوله:(فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة مخضت المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكرة نثراً وأعد له مايلبسه أيان من الألفاظ التي تطابقه والقوافي التي توافقه والوزن الذي يسلس له القول عليه فإذا أتقف له بيت يشاكل المعنى الذي يرومه أثبتته ، وأعمل فكره في شغل القوافي بما تقتضيه من كمعاني علي غير تنسيق للشعر وترتيب لفنون القول فيه بل يتعلق كل بيت يتفق له نظمه على تفاوت مايبينه وبين ماقبله فإذا كملت المعاني وكثرت البيانات ووقف بينها بابيات تكون نظاماً لها وسلكا جامعاً لما يتشتت منها ثم يتأمل ما قد أداه إليه طبعه ونتيجته فكرته" (9)

فيستعصي انتقاده ويرم ما هي منه , ويبدل بكل لفظه مستكرهة لفظه سهلة نقية , وإن اتفقت له قافية قد شغلها في معنى من المعاني واتفقت له معنى آخر مصادق للمعنى الأول وكانت تلك القافية في المعنى الثاني منها في المعنى الأول ونقلها إلى المعنى المختار الذي هو أحسن , وأبطل ذلك البيت أو نقص بعضه , وطلب لمعناه قافية شاكلة ويكون كالنساخ الحاذق الذي يفوت ويشبه التفويض ويسويه وينثره ولا يهلهل نفسه , ويشيع كل ضيع منها حتى يتضاعف في العيان , وكالناظم الجوهري الذي يؤلف بيت النفيس منها والتمين الرائق ولا يشين عقوده بأن يفاوت بين جوهريها في نظمها وتنسيقها .

مما سبق ذكره عن مراحل العمل الأدبي عند ابن طباطبا في عيار الشعر يمكن أن نجمل القول العمل الأدبي يمر بأربع مراحل هي :

1/ تكون الفكرة في المذهب بصورة إنشائية ولتفكير الذي يليها مع اختيار الألفاظ المناسبة والقافية والوزن .

2/ التعبير عن المرحلة وله من بيان شعرية دون ترتيب وتنسيق

3/ يرتب الشاعر الأبيات التي نظمها ونسقها تنسيقاً وجمعها ويتسلسل في ترتيبها حسب الفكر في الذهن حتى تكون مترابطة ومتسلسلة المواضيع .

4/ ثم في المرحلة الأخيرة يعمل على إزالة الأشياء التي تخل بالقصيدة أو ينتقدها ثم يخرجها في صورتها النهائية كاملة الفكرة والموضوع .

من خلال هذه المراحل التي يمر بها العمل الأدبي عند ابن طباطبا يمكن ملاحظة الآتي :

1/ ليس لزاماً على كل الشعراء أن يمروا بهذه المراحل , هنالك بعض الشعراء لا يجبرون هذا الأسلوب ويأتي شعرهم على سجيته إلى لا يهذب شعره ولا تربية بل يجعل فكرته في الأبيات الشعرية .

2/ من الواضح أن ابن طباطبا في تقسيمه لمراحل العمل الإداري كان حاذقاً ذا فكرة ثابتة وهذا ناتج عن أنه ذا تجربة ويتضح لنا هذا أكثر إذا قمنا بالدراسة في شعره .

البناء الفني للقصيدة في عيار الشعر :

البناء الفني من أهم مواضيع النقد الأدبي وكانت بداية الحديث فيه أفلاطون من بعده تلميذه أرسطو في كتابه "فن الشعر" وفيه أشار إلى أن يكون العمل الأدبي وحدة عضوية متماسكة مترابطة لا مجموعة من غير

تماسك وترايط عضوية بينها وفي ذلك قال يجب أن يكون الفصل الأدبي واحداً وأن الأجزاء البيت إذا نقل أو بتر جزءاً انفرط عقد الكل وتزعزع لان ما يمكن أن يضاف دون نتيجة ملموسة لا يكون جزءاً من الكل (3)

أما في النقد العربي قول ابن طباطبا فلا توجد إشارات واضحة أو طريقة فنية تقرب منها . إلا ما أشار إليه الجاحظ بقوله: (أجود الشعر ما رأيته متلاحم الإجراء سهل المخارج فنعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغا واحداً وسبك سبكا واحداً وجرى على اللسان كما يجري الدهان) (5)

أما ابن طباطبا في عيار الشعر فقد وضع أهمية خاصة للبناء الفني للقصيدة إذ تجده تحدث عن الأمور الكفيلة لجعل القصيدة سوية مستقيمة مقبولة في مواضع مختلفة من كتابة (عيار الشعر) وهذا يدل على أن ابن طباطبا قد جعل الوحدة الفنية للقصيدة من أهم أرائه النقدية التي أوردها في عيار الشعر " إذ نجد أن حديثه سبقاً أدبياً لفهم واع دقيق للوحدة الفنية للشعر .

وأكبر ما يدل على ذلك قول محمد غنيمي هلال (لعل أروع ما ينعكس في نظرية الوحدة القصيدة الارسطية في النقد العربي هو قول ابن طباطبا وأحسن الشعر ما ينظم القول انتظاماً) (13)

وأيضاً قال الدكتور شوقي ضيف: (وكان ابن طباطبا تنبيهه في دقة إلى ما ورده ولازال يرده النقاد في عصرنا من فكرة الوحدة العضوية في القصيدة ولعل الغريب حقا أن اصطحاب النقد والبلاغة بعد ابن طباطبا لم يتوسطوا في هذا الموضوع) (8)

أما الدكتور أحمد بدوي طبانة فقد قال: (إذا كان ابن طباطبا قد دعاء إلى أن يضع الشاعر بيت أبياته ما يربط بين هذه الأبيات حتى تتسق القصيدة فذلك لأنه دعا إلى الوحدة دعوة حادة وهو في ذلك يشبه آراء النقاد المحدثين) (2).

أما حديث ابن طباطبا عن الوحدة الفنية للقصيدة فقد تمثل في الآتي :

1/ نبه الشعراء على الاهتمام بمطالع القصيدة وإفنتتاحها حتى تكون أقرب إلى ذهن السامع لتجد القبول عنده كما نبه أيضاً على الاهتمام بالترتيب والانتقال من موضوع إلى آخر أو من غرض إلى آخر يفتنه وحذف ودقة ، حتى لا تكون القصيدة مجزأة كما قال عنها: "إن لها فصولاً كفصول الرسائل فتحتاج الشاعر إلى أن يصل كلامه على تصرفه في فنونه" (9)

2/ جعل بن طباطبا في كتابه "عيار الشعر" قانونا وميزانا واضحا لوحدة القصيدة وترباطا وعدم إمكانية التقدم والتأخير فيها فالقصيدة المترابطة لا يمكن أن تقدم أو تؤخر بيتا , لان ذلك يؤدي إلى عدم ترباطها وتنسيقها , أما القصيدة التي لا تكون أبياتها مترابطة أي كل بيت لا علاقة له بالبيت الآخر فيمكنه أن تقدم أو تؤخر فيها من غير أن يحس لقارى بذلك وفي هذا قال: " وأحسن الشعر ما يوضع فيه كل كلمة موضعها حتى يطابق المعنى الذي أريد له ويكون شاهدا مهما لاتحتاج إلى تفسير من غير ذاتها " (9)

3/ شبه القصيدة المتكاملة بالرسالة و الخطية المرتبطة بالاجزاء فكما أن الرسالة المنسقة المنظمة لا يمكن أن تقدم فيها

أو تؤخر من غير إخلال لها فلذلك القصيدة فعلى الشاعر أن يسلك منهج أصحاب الرسائل في بلاغتهم وتصرفاتهم في مكاتبتهم فان للشعر فصولا كفصول الرسائل (9)

4/ من الواجب عند ابن طباطبا أن تكون القصيدة كالكلمة الواحدة تتراكب وتترباط حروفها مع بعضها البعض حتى تغطي كلمة واحدة فقال: " بل يجب أن تكون القصيدة كلها كالكلمة الواحدة في إشتباه أولها بآخرها نسيجا وحسنا وفصاحة وجزالة الالفاظ ودقة معاني وصواب تأليف , ويكون خروج الشاعر كل معنى بصفة إلى غيره خروجا لطيفا ما شرحناه , التي استشهدنا بها في الجودة والحسن واستواء النظم الا تناقض في معانيها وفي مبانيها ولا تكلف في نسجها وتغتضي كل كلمة مابعداها , ويكون مابعداها متعلقا بها مفتقرا إليها فاذا كان الشعر على هذا المثل سبق السامع إلى قوافيه قبل أن ينتهي إليه رواية) (9)

5/ تحدث عن الملاءمة بيت الالفاظ والمعاني وحسن لتركيب وتهذيب القصيدة حيث قال: (فمن الاشعار محكمة منقحة أيقظة الالفاظ محكمة المعاني عجيبة التأليف إذا نقضت وجعلت نثرا لم نبطل جودة معانيها ولم تفقد جزالة الفاظها) (9)

6/ في آخر عيار الشعر عقد مقالا بعنوان "تأليف الشعر" وضع فيه آراءه حول الوحدة الفنية للقصيدة قد دعاء الشعراء الي الاهتمام بتنسيق الابيات وحسن مجاورتها وتجنب الحشو الذي لا فائدة منه قال : "وينبغي للشاعر أن يأمل تأليف شعره وتنسيق أبياته ويقف على حسن تجاورها كلامه فيها فينسي السامع المعنى الذي يسوق القول إليه , كما أنه يحترز ذلك (9)

اللفظ والمعنى وأقسام الشعر عنده :

سار ابن طباطبا على طريقة أكثر النقاد العرب الذين يفصلون بين اللفظ والمعنى ويرون أنهما أمران متقابلان وهذا الفصل عملية صناعية الهدف لإيضاح ووضع المقاييس الخاصة بكل قسم على حده . ومع أن ابن طباطبا فصل بين اللفظ والمعنى إلا أن يرى وجوب التكامل بينهما , لأنهما مترابطان ترباطا وثيقا ثم يشبه المعنى بالروح واللفظ بالجسد .

وعندما تحدث ابن طباطبا عن المراحل التي يمر بها النص الشعري فصل بين التفكير وبيت التعبير الشعري إذا قال : " فإذا أراد الشاعر بناء القصيدة محض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه فركزه واعد مايسلسه إياه من الالفاظ التي تطابقه والقوافي التي توافقه والوزاري الذي ليسلس له القول عليه) (9)

ثم اوجد مقابلات بين اللفظ والمعنى فاللفظ معرض للمعنى والمعنى روح واللفظ جسد له والالفاظ كسوة المعاني وهذا سيتبادر إلى الذهن سؤال : هل ابن طباطبا من أنصار اللفظ أم من أنصار المعنى ؟

ومن خلال فصله بينهما هل مال إلى اي منهما ؟

الواقع أن ابن طباطبا أولى إهتمامه بالطرفين إلى اللفظ والمعنى معا إذ يرى أن اللفظ قيمة وإن للمعنى قيمة أيضا والحقيقة للبعض الادبي حاجته عن إجتماعها وتوقفهما , وقد ناقش هذين الموضوعين في قوله : " وللمعاني الالفاظ تشاكلها فتحسن فيها وتصبح في غيرها وهي لها كالمعرض للجارية الحسناء التي تزداد حسنا في بعض المعارض دون بعض وكم من معني حسن قد شين بمعرضه الذي أبرز فيه وكم من معرض حسن قد إبتدل على معنى قبيح البسه

أي بمعنى أن المعنى وحده لا يكفي فقد يعاب بمعرضه القبيح وجمال اللفظ وحده لا يكفي فقد ينتزل لمعني قبيح لا يستحق هذا الجمال اللفظي وهذا قال " والكلام الذي لا معنى له كالجسد الذي لا روح فيه كما قال لبعض الحكماء الكلام جسد وروح وجسده النطق ورحه معناه " (9)

من خلال التشبيه المعنى بالروح واللفظ بالجسد والمعرض يوضح أنه يميل إلى جهة المعنى ولكن هذا التشبيه غير صحيح لأنه وصفه للمعنى بالروح حكاية لامر واقع لاينكر أحد تم لانه لم يهمل اللفظ بل أولاه عنايته أما أنصاره غير وزن إهتماماتهم على المعاني من غير النظر إلى التعبير عنهما كما يبدو ذلك واضحا من حديث الجاحظ عن ابن عمرو الشيباني في الحيوان (6)

وفي حقيقة الامر أن ابن طباطبا يحاول الملاءمة بين اللفظ والمعنى ويبدو ذلك واضحا من حديثه عن ملاءمة معاني الشعر لمعانيه حيث يقول : (فواجب علي صانع الشعر أن يصنعه صنعة متقنة لصيقة مقبول حسن مجتلية لمحبة السامع له والنظر بعلقه إليه مستدعية لعشق المتأمل في محاسنه والمتعرس في بدائعه فتحسبه جسيما ويحققه روحا الي أن يتقنه لفظ ويبدعه معنى ويتجنب إخراجة على ضد هذه الصفة فيكسوه قياحا ويبرزه مسخا بل سوي أعضائه وزنا ويعدل أجزاء ه تأليفا ويحسن صورته إهانة ويكثر رونقه إختصارا ويكرم عنصره صنيعا ويقيده بالقبول دقة ويحرضه جزالة ويدينه سلاسة وينأي به , وتعلم أنه

نتيجة عقلية وتمريرة ليه وصورة علمه الحاكم عليه أوله ويرجع تأثير الشعر في النفس وسيلة الي تكامل مقوماته اللفظية والمعنوية ويشبه بالغناء وحسن صحة المعنى وعذوبة اللفظ فصفا متنوعة ومعقولة من الكدر ثم قبوله وإشتمال عليه وإن نقص جزء من أجزائه التي يعمل بها وهي إعتدال الوزن وصواب المعنى وحسن الالفاظ فان إنكار الفهم على قدر نقصان أجزائه (9)

ومثال ذلك الغناء لمطرب الذي يتضاعف له الطرب مسمعه المتفهم لمعناه ولفظه من طيب الحانه فاما المقتصر على طيب اللحن من دون سواه فناقص لطرب)

من خلال ما سبق تتضح دعوته إلى الاهتمام باللفظ والمعنى معاً .

أقسام الشعر عنده :

لم يختلف ابن طباطبا كثيراً عن الذين سبقوه في تقسيمهم للشعر حيث نجده لم يقسم الشعر تقسيماً معيناً بل كان منهج ابن قتيبة في تقسيمه الرباعي ولم يكتف بالنظر إلى اللفظ والمعنى بل أضاف إلى ذلك نظرات في جوانب أخرى كالنظرات إلى القافية الوزن .

وفي بداية كتابة عيار الشعر نجده قد قسم إلى قسمين واعتبر هما أساسياً في تقسيمه للشعر ولم يخل حديثه عن المعنى واللفظ والتقسيم الأول إذ يقول (فمن الأشعار اشعار محكمة متبقية أنيقة الالفاظ حكمة المعاني عجيبة التأليف إذا إنفضت وجعلت نثراً لم تبطل جودة معانيها ولم تفقد جزالة الفاظها .⁽⁹⁾

وفي حديثه عن القسم الثاني أيضاً لم يعر تقسيمه عن المعنى واللفظ وهذا دليل على ماسبق الحديث عن إهتمامه بالمعنى واللفظ إذ يقول في القسم الثاني : " ومنها أشعار مموهة مزخرفة عذبة تروق الأسماع والافهام إذا مرت صفحا , فاذا حصلت وانتقدت بهرجت معانيها , وزيفت الالفاظها ومحت حلاوتها ولم يصلح نقضها البناء يستأنف منه إذ يقول في القسم الثاني : " ومنها أشعار مموهة مزخرفة عذبة تروق الأسماع والافهام إذا مرت صفحا , فاذا حصلت وانتقدت بهرجت معانيها , وزيفت الالفاظها ومحت حلاوتها ولم يصلح نقضها البناء يستأنف منه) (9)

ومما لا جدال فيه هو أن ابن طباطبا لو إقتصصر على تصميم السابق أي على هذين النوعين لكان هذا التقسيم ناقصاً إذ نجده لا يتناول الأشعار المحكمة المتقنة الأشعار المزخرفة العذبة التي لامعنى تحتها ويعمل أنواعاً أخرى كالأشعار القوية المعنى الضعيفة والمبني ولذلك الأشعار الضعيفة المعنى والصياغة .

لم يكشف ابن طباطبا بالتقسيم الثنائي السابق بل جاء بتقسيمات أخرى في مواضيع مختلفة من كتابة عندما تحدث عن الأشعار المحكمة النسيج ذكرا أنواع كثيرة منها :

1/ القوافي الواقعة في موضوعها .

2/ القوافي المتمكنة في موقعها .

3/ القوافي الواقعة موقعا حسن .

4/ الأشعار المحكمة الدقيقة المستوفاه المعاني الالفاظ حسن الديباجة .

5/ الأشعار التي زادت قريحة قائلها فيها على عقولهم .

6/ المعاني المسترذلة الشائعة الالفاظ .

7/ الابيات الرائقة سماعا الواهية تحصيلا .

8/ الالفاظ المستكرهه النافرة الشائعة للمعاني .

9/ الابيات القبيحة نسجا وعبارة الصحيحة معنى وحكمة وأصالة (9)

من خلال هذا التقسيم كله هنالك سؤال لا بد من الاجابة عليه. هل تأثير ابن طباطبا بتقسيم ابن قتيبة للشعر؟ الشئ الذي لاشك فيه هو ان ابن طباطبا تأثير ابن قتيبة في تقسيم الشعر ولكن لا بد لنا أن نتأكد من الاتي:

1/ هل تابع ابن طباطبا ابن قتيبة وقلده ؟

2/ أم هل خالفه في التقسيم ؟

4/ أم هل زاد التقسيم عن ابن قتيبة ؟

اختلف كثير من النقاد حول التقسيم إذ يري الدكتور شوقي ضيف أن كلام بن طباطبا يكاد يكون تفسير لفكرة ابن قتيبة ويقول " ويكاد الكتاب من هذا الموضوع الي نهايته يكون تفسيراً لفكرة ابن قتيبة ويقول " ويكاد الكتاب من هذا الموضوع إلى نهايته يكون تفسيراً لفكرة ابن قتيبة وهو تفسير يستمد فيه من كتابات الجاحظ وما وجد بعده من أفكار في حسن البيان وملاحظاته الخاصة في بعض محاسن القول (9)

أما الدكتور محمد السعدي فريود فيقول " وهذه هي ضروب الشعر عند ابن قتيبة وزاد عليها ابن طباطبا ضروباً أخرى ترجع عند التحقيق إلى الضروب الأربعة (8)

أما الدكتور إحسان عباس فيرى أنه لم يقتصر على الأقسام الأربعة التي ذكرها ابن قتيبة وأنه يصدر في حديثه عن تذوق خالص لاعلاقة له بالتقسيم المنطقي " (1)

أما الدكتور محمد زغلول سلام فيقول " إنه لم يتبع ابن قتيبة إتباعا حرفيا لا تحرر فيه بل إنه أورد فهمه الخاص . مع ذكر تقسيم بن قتيبة وأمثلة أخرى مغايرة وأضاف إلى العيوب التي تلحق غير قبح اللفظ أو المعنى عيوباً أخرى " (11)

ومن الواضح أن ابن طباطبا قد استفاد واستفاداً كبيرة من تقسيم ابن قتيبة ثم زاد عليه أقسام أخرى مع ملاحظة أنه لم يهتم بالأقسام بحيث يرتبها وينظمها , بل أوردتها متناثرة ومتداخلة في كتابه مع الاهتمام بالأمثلة والنماذج . ومن التقسيمات الأخرى التي أوردتها في كتابه نجده قد قسم الشعر إلى ثلاثة أقسام .

1/ الشعر الوجداني .

2/ شعر الحكمة والتجارب الصادقة .

3/ شعر الوصف وبيان أحوال الناس .

رأيه في القدماء والمحدثين :

هنالك آراء كثيرة دائرة حول نظرة النقاد للقدماء والمحدثين إذ نجد أن فريقاً آخر تحرى الانصاف والدقة كالجاحظ إذ يقول " إوقد رأيت أناساً يبهديون أشعار لمولدين ويستقطعون من إدارتها ولم ذلك قط الا في رواية للشعر بصير بجوهر ما يروي ولو كان له بصر لمعرفة موضع الجيد مما كان وفي أي زمان ومكان (1)

أن ابن طباطبا كان من الذين يعظمون في أشعارهم القدماء ويرى أن شعارهم هي النموذج الذي يجب أن يحتذي به ويساد على طريقه , ولم يقف عند هذا الحد فحسب بل قادر إلى دعوة القاري لأشعارهم إلى الوقوف وعدم العجلة في تجاوز أشعارهم قديماً يخفي المعنى على القاري لجهله بأحوالهم فيقول " فاذا إتفق لك من أشعار العرب التي يحتج بها تشبيهه لاتتلقاه بالقبول أو حكاية حبيسة إذا أثرتها عرفت فضل القوم بها وعلمت أنهم أدق طبعاً من أن يلفظ بكلام لامعنى تحته , وربما خفي عليك مذهيبهم في سنن يستعملوا في حالاتهم علي أشعارهم فلا يمكنك إستنباط ماتحت حكاياتهم لاتفهم مثلها سماعاً (6) وعلي الرغم من إقتدائه بالاقدمين الا أنه لم يعمل أمر المحدثين والسؤال الذي نطرحه هنا كيف يجهل أمر المحدثين وهو شاعر

محدث ؟ ولكن لم يجهل في هذا الامر بل جاء دفاعه عن القدماء بطريقة منطقية ناتجة عن تجربة عاشها وجاء دفاعه بطريقة مشفوعة بالتجربة وكان منصفا عادلا في ذلك .

وعلي الرغم من إقراره بالمحدثين والثناء عليهم الا أنه جاء بالفهم وإستفاد من القدماء وهذا واضح علي إنه متعصب للقدماء والدليل علي ذلك قوله " وستعترف في أشعار المولدين بعجائب إستفادة ممن تقدمهم , ولفظ في تناول أصولها منهم ولبسوها علي من يعدهم وتكثروا بابداعها فسلمت لهم عند إدعائها لطيف سحرهم وزخرقتهم لمعانيها (9)

وفي حديثه عن المعاني تجده قد ضيف الباب أمام المحدثين وحاول أن يفهم بان القدماء سبقوا المحدثين علي كل المعاني اللطيفة وهذا الفهم الحديث فهم غير دقيق فان المعاني ليست بالبسيطة حتى تنفذ , ولكن المشكلة الحقيقية في أن المحدثين قيدوا أنفسهم بمعاني القدماء وأخذوا يعيدونها من غير أن يتذكروا فينتج عن ذلك الشك بان القدماء قد سبقوهم إلى كل المعاني كما قال ابن طباطبا (المحنة علي شعراء زماننا أشد منها (9)

رأيه في العروض والقوافي :

لم يتجاهل ابن طباطبا أمر العروض والقوافي أو ما يسمى بموسيقى الشعر , فقد أعطاها مساحة في مقدمة كتابه " عيار الشعر " .

لايفوت علينا أن تنبيه إلى ابن طباطبا كتاب في العروض أشار إليه ياقوت الحموي بقوله " لم يسبق له مثل " وفي كتابه عيار الشعر تحدث عن العروض بقوله " صح طبعه ورق ولم يحتج الاستفاضة علي نظم الشعر بالعروض إلى هي ميزانه ومن اضطرب عليه الذوق لم يستمع من تصحيحه وتقويمه بمعرفة والاستفاضة كالطبع الذي لاخلف فيه (9)

أما القافية فقد تحدث عنها بقول "ومن الابيات المستكرهة الالفاظ القلقة القوافي الرديئة الشبح فليست عن عيب يلحقها في حشوها أو قوافيها , أما الفاظها ومعانيها كقول اي البقاء الهذلي . ذكرت أنني فعاونني صراع الراس والوصب .

فذكر الرأس مع الصراع حشو .

وفي آخر كتابه "عيار الشعر قام بتقسيم القوافي في الشعر العربي الي سبعة أقسام وهي علي وزن فاعل أو فعال أو مفعّل أو فعل أو فعل أو فعل أو فعل أو فعل أو فعل (9)

وعبر عن ذلك بقوله " وسألت . أسعد الله عن حدود القوافي وعلمي بكل وجه تتصرف قوافي الشعر كلها وتنقسم الي سبعة أقسام (9) كما نلاحظ أيضا على القافية منها مقيد ومطلق ثم ختم حديثه بقوله " وهذه حدود القوافي التي لم يذكرها احد ممن تقدم (9) وفي رأي أن التقسيم الذي توصل اليه حديثه بأنه لم يسبق اليه ليس فيه فائدة كبيرة .

رأيه في السرقات الادبية

أن ظاهرة السرقات الادبية من الظواهر التي أخذت إهتماما كبيرا من النقاد في كافة العصور وقد تطور البحث فيها على مرور الزمن من ملحظات بسيطة ونظريات عامة من هذه الملحوظات والنظريات توصل إلى قواعد نقدية تحكم الاخر والاحتواء والتقليد في الشعر بطريقة حسنة وقف القواعد التي وضعت لهذه الظاهرة .

وليس ابن طباطبا أول من يتناول هذه الظاهرة بل سبقه عليها عدد كبير من النقاد السابقين ونذكر منهم علي سبيل المثال الا الحصر .

ابن سلام الجمحي وابن قتيبة وجاء من بعدهما علماء طوروا البحث في السرقات الادبية مثل الامدي في كتابه الموازنة " والقاضي عبدالعزيز الجرجاني في الوساطة بيت المتنبّي وخصومه وابوهلال العسكري في كتابه "الصناعيين " وابن رشيق القيرواني في " العمدة" وعبدالقاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة " وابن الاثير في كتابه " المثل السائر "

وإذا أتينا إلى ابن طباطبا وآرائه في السرقات غيره على منهج معين إذ يتمثل منهجه النقاط التالية:

من المناهج والاسس التي وضعها الاخذ الحسن قوله "ويحتاج من سلك هذا السبيل الي الطاف الحيلة وتدقيق النظر في تناول المعاني واستعارتها وتلبيسها حتي تخفي علي نقادها والبصر عملها وينفرد بشهدها كان علي غيره مسبوق اليها فيستعمل المعاني المأخوذة من غير الحسن الذي تناولها منه (9)

وقد علق علي هذا الكلام الدكتور إحسان عباس بقوله " إن من يعلم الشاعر كيف يصنع قصيدته بيتنا بيتنا بل كلمة لا بد له من أن يعلمه طريقة السرقة لا نبال فيها حد السرقة (9)

ومن خلال حديث ابن طباطبا عن الاخذ الحسن فانه بهذا يصنع قواعد للاخذ الحسن هي :

1/ إستعمال المعاني المأخوذة في غير الحسن الذي أخذت منه من ذلك قوله " فيستعمل المعاني المأخوذة من غير الحسن الذي تناولها منه (9)

2/ الطاف الحيل في الاخذ وعدم إظهارها بقول " ويحتاج من سلك السبيل الي النطق الحيلة وتدقيق النظر (9)

3/ نظم المنثور إلى الاستعارة من الرسائل والخطب بقوله " فان وجد المعني اللطيف من المنثور من الكلام في الخطب والرسائل فتناوله وجعله شعرا كان كمادة قد أضحى أحسن بعدم الاستعجال بإبعاده والطنن فيه بل من الواجب نفهم معناه ومرماه ولا ينسى أن للعرب صفات القريحة ورقة الطبع (9)

أراءه البلاغية :

وعلى الرغم من أن ابن طباطبا في كتابه عيار الشعر له آراء نقدية , لكنه لم يهمل البلاغة حيث أورد في بعض آرائه البلاغية بصورة محصورة في موضوع واحد من موضوعات علم البيان وهو التنبيه إذ نجده تحدث عن التنبيه في مواضيع متفرقة في كتابه عيار الشعر حيث عقد فصلا كاملا لهذا الموضوع .

وبما أن ابن طباطبا عقد فصلا للتشبيه قاده النقاد الذين تناولها الكتاب .

ومن هؤلاء النقاد الدكتور شوقي ضيف إذ يقول " ولا يلبث أن يحدث عن وجود التشبيه وكأنه يعده جوهر الشعر وليه ومبحثه فيه يعد أهم مبحث في كتاب يتصل بالبلاغة وتطور البحث في مسائلها (9)

ويقول الدكتور بدوي طبانه " وقد تحدث عن طريقة العرب في التنبيه وإنتراعه من بيئاتهم وحياتهم من كلام نقدي بديع (4)

ضروب التشبيه عند ابن طباطبا :

جعل ابن طباطبا للتشبيه ضروبا كثيرة , وفي كثير من الاحيان تقسيمه يقوم علي وجه التشبيه .

ومن ملاحظاته أن التشبيه قد يكون في أمر واحد وقد يكون في أكثر من أمر ومن حيث الضروب التي جعلها بن طباطبا للتشبيه هي :

1/ تشبيه الشيء بالشيء صورة وهيئة .

2/ تشبيه الشيء بالشيء في الحركة بطناً وسرعة .

3/ تشبيه الشيء بالمعنى .

4/ تشبيه الشيء بالشيء لونا .

5/ لتبنيه الشيء بالشيء صوتاً .

حيث وضح هذه تشبيهات بقوله " التشبيهات على ضروب مختلفة فمنها تشبيه الشيء بصورة وهيئة ومنها تشبيهه به معني ومنها تشبيهه به لونا

، و منها تشبيهه به صوتاً و ربما امتزج ب هذه المعاني بعضها ببعض فاذا اتفقت في شئ للتشبيه بالشيء معنيان او ثلاثة معان من هذه الاوصاف قوي التشبيه و تأكد الصدق فيه و حسن الشعريه للشواهد الكثيرة المؤيدة له على من كان قبلهم لانهم و قد سبقوا إلى كل معني بديع اللفظ فصيح صله لطيفه و خلابه ساحرة " (9) و من خلال دفاع ابن طبا طبا عن القدماء هنالك سؤال يجب الاجابة عنه بوضوح و هو :

هل يعتبر ابن طبا طبا المحدثين سرقوا معاني القدماء؟

في حقيقه الامر ان ابن طبا طبا موقفه من الاخذ من القدماء يعتبره سرقة الا اذا جاء التعبير عن المعاني بطريقه جديده و دفاع ابن طبا طبا عن القدماء ناتج عن اعتباره ان شعر القدماء ناتج عن طبع غير متكلف على عكس المحدثين فان شعرهم متكلف إلى حد كبير. و على الرغم من دفاعه الشديد عن القدماء الا انه وضع مميزات يمتاز بها شعر المحدثين فكانت في النقاط. التاليه :

يتميز شعر المحدثين عن القدماء في اجادة التخلص و الانتقال من موضوع إلى اخر و من غرض إلى غرض يرى ان حسن التخلص من المميزات التي يمتاز بها المحدثين ... و عن حسن التخلص قال : "و من الابيات التي تخلص مها قائلوها الى المعاني التي ارادوها من مديح أو هجاء أو افتخار أو غير ذلك و لطفوا من صله ما بعدها بها فصارت غير منطقية عنها لمن ما ابدعته المحدثون من الشعراء دون من تقدمها " (9) و في هذه النقطة وضح ابن طبا طبا كيف كانت كيف ينتقلون من موضوع إلى آخر و من غرض إلى غرض و هذا غير نهايته بحسن و اجادة الربط بين الاغراض و ارد بعض الامثلة على ذلك , اما عن المحدثين قال ابن طبا طبا : "فسلك المحدثين غير هذا السبيل و لطفوا القول من معني التخلص إلى المعاني التي ارادوها" (9)

و هذا لا يعني ان القدماء لا يجيدون التخلص كلهم بل كان هنالك من يجيد التخلص في ذلك قال ابو هلال العسكري:فاما التخلص المتصل بها قبله فقليل في اشعارهم " (14)

تحدث ابن طباطبا عن أدوات التشبيه وما تفضل به واحدة علي الاخري مع مراعاة صدق التنبيه وإكمال الوجه بيتي الطرفين فقال : فما كان من التنبيه صادفا قلت في وصفه أوقلت كذا عنه ومأقارن الصدق فيه تراه أو تخاله أو يكافي " (9)

وفي حديثه عن أحسن التشبيهات فانه يقول " وماكان التشابه بين الطرفين فيه كاملا شاملا حتى أنتا لو عكسنا التنبيه لاستقام الكلام وهذا يعتبره ابن طباطبا من أحسن التشبيهات " مآحسن التشبيهات ما إذا عكس لم ينقص بل يكون شبيه بصاحبه مثل ويكون مثله متشبتها به صورة ومعنى (9)

ولا يفون علينا أن نلاحظ أن المشبه إذا كان مثل لمشبهه به في كل شئ لا يصبح التنبيه , إذا أن التنبيه لا يقع بين متحدين في كل الصفات وأدق من كلام ابن طباطبا قول قدامه بن جعفر " وأحسن التنبيه هو ماوقع بين شيئين إشتراكهما في الصفات أكثر من إفرادهما فيها حتى يدني بها إلى حال الاتحاد (9)

رأيه عن التشبيهات الغريبة : يمكن إعتباره من أنصار الشعر العربي الاصيل ويرى أن مافيه من غرابة راجع إلى إختلاف طبيعة العصر وبالتالي توي إلى عدم فهم الشئ المراد منه التنبيه على وجه الدقة وبذلك يحث ابن طباطبا النقاد إذا ورد عليهم تنبيه غريب

طريقة التنبيه عنده :

قبل الخوض في حديث ابن طباطبا بن عن التنبيه لابد من الحديث عن طريقة الاقدمين في التنبيه :

من المعروف أن الانسان ابن بئيته وقد لاحظ ابن طباطبا أن العرب السابقين كانت تشبيهاتهم نابعة من بينهم ومن طبائعهم ومشاهداتهم ومداركهم الحسية ولذلك يكون لزاما على كل دارس للادب العربي معرفة أحوال العرب والتشبيهات التي كان يتناولونها إذ يقول في ذلك " وأعلم أن العرب أو عن أشعارهم من الاوصاف والتشبيهات والحكم ما أحاطت به معرفتهما وأدركته عينها وصارت به تجاريا وهم أهل وبر وصحوتهم البوادي وسقوفهم السماء , فليست تعدوا أوصافهم ماراوه منها وفيها وفي كل واحدة عنها في فصول الزمان علي إختلافها من شتاء وصيف وربيع وخريف ومن ماء وهواء ونار وحيل ونبات وحيوان وجماد وناطق وصامت ومتحرك وساكن وكل ما تولد من وقت تشوئه وفي حال نحوه الي حال إنتهائه ,

فتضمنت أشعارهم من التشبيهات ما أدركه من ذلك عينها وحسها ال مافي طياتها وأنفسها من محمود الأخلاق ومزموها " (9)

في النقطة الثانية يعتبر ابن طباطبا أن أخذ المعنى والزيادة عليه أو صياغة بصياغة أخرى لا تعد سرقة لان الشاعر قد تصرف بالزيادة والنقص " وإذا تناول الشاعر المعاني التي سبق اليها فابرزها في أحسن من الكسوة التي عليها لم يعجب بل وجب له فضل لطفه وإحسانه فيه " (9)

جعل ابن طباطبا الباب مفتوحا أمام المحدثين في موضوع السرقة وجاء في ذلك مقلدا للقدماء وله رأي في المحدثين فهو يري القدماء استوفوا الحديث عن المعاني المختلطة ولذلك فهو لا يقف كثيرا في مسألة أخذ المعني كثيرا . ومن هذه النقطة السابقة هذا لا يعني أن ابن طباطبا أباح السرقة ولكن ناشد الشعراء المحدثين بالاعتداء بأشعار الأقدمين الحسنة منها , والاعتداء هنا ليس المعني به السرقة ولكن المعنى به الاقتداء والسير علي طريقة الأقدمين فهو بذلك يدعو الشعراء إلى فهم المعاني التعمق فيها ثم الاقتداء بها ولذلك أختار أشعار للشعراء من طبقة مجيدة من هذا الكتاب ثم توسع في كتابه الآخر وهو " تهذيب لطبع "

وأشار بقوله : " ولا يغير معاني الشعر علي معاني الشعر فيودعهم شعره ويجزيها في أوزان مخالفة الأوزان الإشعار التي يناولها منها ما يتناوله وتقيهم أن التغيير الألفاظ والأوزان مما يستر سرقة أو يوجب له فضله , بل يديم النظر في الإشعار التي اخترناه لتلصق معانيها بفهمه فإذا جاش فكره بالشعر الذي أدى إلى نتائج استفادة مما نظر فيه من تلك الإشعار فكانت تلك النتيجة كسيكة مفرغة من جميع الأصناف التي نخرجها المعادن , وكمن أغترف من وأد قد دمرته سيول جارية من شعاب مختلفة " (9)

المراجع والمصادر :-

- 1/ احسان عباس -تاريخ النقد الأدبي -الطبعة الاولى -دار الامانة -بيروت -1971
- 2/ احمد بدوي - من النقد والأدب ط 5 -مطبعة دار الكتب -القاهرة
- 3/ ارسطو -فن الشعر-تحقيق عبدالرحمن بدوي -دار النهضة -1959 .
- 4/- د بدوي طبانة -علم البيان -الطبعة الثانية
- 5/ الجاحظ- البيان والتبيين -تحقيق عبدالسلام هارون -الطبعة الخامسة -مكتبة الخانجي القاهرة -1985
- 6/ الجاحظ - الحيوان - تحقيق عبدالسلام هارون -الطبعة الاولى -دار الكتاب العربي -بيروت

- 7/ ابن رشيق القيرواني -العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده -تحقيق محمد محي الدين -الطبعة الرابعة-دار الجيل -بيروت -1972
- 8/ د شوقي ضيف -البلاغة تطور وتاريخ -دار المعارف -القاهرة -مصر 1965م
- 9/ ابن طباطبا -عيار الشعر-تحقيق طه الحاجري -محمد زعلول سلام -الطبعة الاولى -المكتبة التجارية -القاهرة -1965
- 10/ قدامه ابن جعفر -نقد الشعر - . -تحقيق كمال مصطفى الطبعة الثانية -دار السعادة القاهرة 1963
- 11 / د محمد زعلول سلام -تاريخ النقد الأدبي-دار المعارف -القاهرة
- 12 / د محمد السعدي فرهود قضايا النقد الأدبي -الطبعة الاولى -زهران القاهرة 1968
- 13 / د محمد غنيمي هلال - النقد الأدبي الحديث -دار المعارف القاهرة
- 14/ أبو هلال العسكري -الصناعتين-تحقيق البجاوي -الطبعة الأولى -دار إحياء الكتب القاهرة مصر 1951م